# الفصل الثالث

# جوانب جمال الدين الأفغانى

## ١ – نظرة عامة

إن من يدرس تاريخ السيد جمال الدين حق الدرس – من يوم أن أتم تعليمه فى شبابه ، إلى أن لقى مصرعه فى الأستانة بكيد أعدائه – يتبين له فى جلاء ووضوح جوانب حياته ومدى جهاده فى سبيل الإصلاح والتحرر .

ذلك أنه عندما بلغ أشده واستوى علماً ورشداً ، وتهيأ للعمل فى الحياة بما تواتيه به طبيعته ومواهبه ، سافر إلى البلاد الحجازية ليؤدى فريضة الحج كما رأينا ولم يفعل كما يفعل غيره فينقلب بعد حجه إلى بلاده ، وإنما رأى قبل أن يصل إلى مكة أن يسيح بين البلاد العربية كلها ليدرس أحوالها ويختبر ما كان عليه أهلها فى عقائدهم وأخلاقهم وعاداتهم ،وكأنه يريد بهذه الدراسة أن يضيف إلى ما درس من علم مادة جديدة تعينه على ما يريد أن يضطلع به من جهاد فى سبيل هذه البلاد فقضى فى سياحته أكثر من عام، وقد خرج من هذه السياحة بعد أن أصاب منها فوائد غزيرة ومنافع جزيلة .

وبعد حجه عاد إلى بلاده ، وانتظم فى خدمة الأمير « دوست خان » وشهد بنفسه مع جيش هذا الأمير الحرب التى قامت لفتح « هراة » وبعد أن توفى الأمير « دوست خان » تولى منصب الوزير الأول للأمير « محمد أعظم خان » وخاض معه الحروب التى نشبت بينه وبين أخيه الأصغر « شير على » وهى الحروب التى عضد فيها الإنجليز شير على هذا بدسائسهم ، وقناطير الذهب التى بذلوها من أموالهم لتفرّق على الرؤساء العاملين مع « محمد أعظم » فينصرفوا عنه .

وفى هذه الحروب تجلت بطولة السيد جمال الدين وشجاعته وقد كان – كما قال جورجى كوتشى فى وصفه – : «ولقد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه النادر ، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون الحربية » .

والنشأة الحربية – كما لا يخفى – تبعث فى نفس صاحبها الشجاعة والبطولة وتدفعها إلى اقتحام المخاطر وملاقاة الصعاب بغير ما خوف ولا وجل، وما لا ريب فيه أن الشجاعة كانت من الصفات العليا التى امتاز بها جمال الدين فى حياته كلها .

ولما انتهت هذه الحرب بهزيمة « محمد أعظم » وفراره إلى بلاد إيران بقى السيد فى بلاده بعد هذه الهزيمة عزيزاً لم يستسلم ولم يخضع وظل مرفوع الرأس ، لا يميل ولا يلين، ولم يستطع شير على – وهو المنتصر فى الحرب التى كان السيد وزير الحرب لعدوه – أن يمس السيد بسوء وذلك لعظم مكانته وخشية أن يخرج الناس عليه ، ويبطشوا به .

ثم أراد السيد أن يذهب إلى الحج مرة ثانية فأذن له على أن يكون فى طريق الهند . وما كاد يصل إلى تخوم هذه البلاد حتى قوبل من حكومتها بالحفاوة البالغة ، ولكنها لخوفها منه أمرته أن لا يطيل المقام فى هذه البلاد ، وأن لا يجتمع بأحد من علمائها إلا على عين من رجالها .

وبعد أقل من شهر سيرته الحكومة إلى السويس وسافر منها إلى القاهرة ولكنه لم يلبث فيها إلا شهراً وبعض شهر .

ثم تحول إلى الأستانة وهناك لقى من كيد رجال الدين وسعايتهم لدى السلطان عبد الحميد ما جعله يبارح الأستانة مرغماً فعاد إلى مصر .

ولما رغبوا إليه أن يقيم بها ، كان أول شىء أراد أن يعمله ، وهو عالم مسلم عظيم ، أن يتصل بالأزهر ، وهو المعهد الدينى الكبير الذى يضم طلاباً من أكثر بقاع الأرض ، لكى يلقى فيه من علمه ، ويبذر فى أرضه ، من بذور إصلاحه ، ولكن شيوخ الأزهر وقفوا بجمودهم فى وجهه ، فلم يمكنوه من الوصول إلى غرضه ، وقد ذكر تلميذه النجيب أديب إسحاق أنه جرت بينه وبين علماء الأزهر مناظرة

أفضت إلى المنافرة فانقطع إلى منزله يلقى فيه دروسه .

وبدت من السيد نظرة إلى الناحية الاجتماعية فرأى ظلم الحاكين وجورهم الذى توارثته البلاد منذ أجيال ، فقد ازداد طغياناً فى عهد إسماعيل حتى أصبح الناس فيه ، كما صفهم الأستاذ الإمام « عبيداً أى عبيد » .

ثم التفت إلى نظام الحكم فوجده حكماً استبدادياً غاشماً لا ينفذ فيه إلا إرادة الحاكم ومشيئته ، وأن مجلس شورى النواب الذى ابتدعه إسماعيل لم يكن إلا مجلساً صورياً ليس له أن يقضي فى أمر إلا بأمر إسماعيل وليس من حقه أن يسير على قواعد الشورى المتبعة فى سائر مجالس النواب .

وبذلك تشعبت أمام السيد سبل الإصلاح وتعددت وجوهه ، وكان عليه أن يجاهد فى ميادينها جميعاً ، فأخذ يعمل على الإصلاح الدينى بمحاربة الخرافات والأوهام التى غشيت الدين ، وذلك لكى يعيده إلى طهارته الأولى وفى ذلك يقول تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده :

« لقد وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر » .

ولم يقف جهاده الدينى بل أخذ كذلك يكافح الجمود الفكرى والتقليد الأعمى الذى جعلوه ( واجباً ) لا بد من اتباعه وقد ربطوا هذا الوجوب ببيت من شعرهم هو هذا :

واجب تقليد حبر منهمو    كذا حكى القوم بلفظ يفهم

والمقصود بهؤلاء الأحبار هم : أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل فلا يصح لأحد أن يقلد غيرهم .

ولما قرأ السيد فى دروسه كتب الفلسفة ، وكانت قراءة الفلسفة محرمة فى الأزهر ، ومن ينظر فيها يكن زنديقاً كافراً كما قضى بذلك شاعرهم فى قوله :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة    فذاك كفر عند أهل الملة

فهاج شيوخ الأزهر على السيد ورموه هو وتلاميذه بالكفر ، ولكنه لم يلق بالا إليهم وظل فى طريقه لا يدع فرصة سواء كان ذلك بالقول أو بالكتابة إلا بث آراءه

الحرة فيها لتلاميذه وكان كما صرح بذلك تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده إذ قال :

« إنه كان لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ويطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة فى البلاد خصوصاً فى القاهرة » .

وقد نفذت أفكاره وآراؤه إلى مجلس النواب على لسان كبار تلاميذه فى مثل النائب الجرىء عبد السلام المويلحى ( باشا ) الذى كان يهز أعواد منبره هزاً مما لم نعهد مثله فى تلك الأزمان . .

ولما أثمرت تعاليمه التى كان يبثها لتطهير العقائد وتحرير الأفكار وتبصير الناس بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وعظم نفوذ السيد فى البلاد وأقبلت عليه الوجوه ، وانصرفت إليه الأذهان ، شق ذلك على أعدائه فلم يدعوه يسير فى طريقه لكى ينشر دعوته ويتم رسالته فأرصدوا له الكيد والبغى وثارت عليه الحرب من كل ناحية .

فقام رجال الدين من ناحية يرمونه بالكفر والزندقة ونفذوا بسعاياتهم إلى الخديو توفيق فما لبث بعد أن وثق به وقال له : إنك أنت موضع أملى فى البلاد . أن نكث معه عهده وأخلف وعده وقد انتهز سفير إنجلترا هذه الفرصة فأوغر صدر توفيق على السيد وقال له : إنه يريدها جمهورية وخشى هذا الوزير أن يقضى السيد — وهو عدو الإنجليز اللدود بتعاليمه على آمال إنجلترا فى احتلال مصر لكى تقبض على مفتاح الهند التى كانت يومئذ أعظم درة فى التاج البريطانى — وبهذا الكيد الذى جاءه من هذه النواحى الثلاث أصدر توفيق أمرة بنفى السيد إلى الهند — ليقيم بحيدر آباد ولم تدعه إنجلترا يهدأ فى هذا المنفى ، بل أمرت بنقله إلى كلكتا عندما قامت الثورة العرابية لأنها كانت تعتقد أن هذه الثورة قد شبت من تعاليم جمال الدين .

هذا كان أمر السيد بالقاهرة وقد علمت من قبل ما لقيه فى الأستانة فى المرة الأولى من سفره إليها ، وكيف كاد له شيخ الإسلام وأعوانه حتى خرج منها مرغماً ، وكيف ختم تاريخه بتلك المأساة الفظيعة بالأستانة فى المرة الثانية عندما احتال عليه السلطان عبد الحميد بوساطة الدجال أبو الهدى الصيادى فى أن يزوره فقبل السيد بحسن ظنه ولكن السلطان حبسه فى قفص من الذهب لكى يتمكن أعداؤه من رجال الدين الدجالين من أن يأتمروا به وأن يلقى حتفه على أيديهم .

ولا ننسى ما فعله شاه العجم ناصر الدين معه فقد توسل إلى السيد لكى يذهب معه إلى بلاده وما كاد السيد يصل إلى فارس ويرى الشاه مبلغ حفاوة الناس به وما تبين له من آرائه التى كلفه بوضعها لإصلاح البلاد من أنها تحد من سلطانه حتى تنكر له وغدر به فنفاه من بلاده .

فأنت ترى مما قصصناه عليك من جملة تاريخ السيد جمال الدين أنه عاش حياته كلها بين النفى والطرد والاضطهاد والتشريد ثم انتهى أجله بما يشبه القتل كما حقق ذلك المؤرخون .

## ٢ ــ دعوة شاملة

مما لا خلاف فيه أن دعوة جمال الدين الإصلاحية إنما كانت دعوة عامة ليست خاصة بأمة من الأمم ولا شعب من الشعوب فقد ترك فى كل الممالك الشرقية ، وما اتصل بها من الأمم الأوربية أثراً ، وبذر فى كل أرض بذراً .

أخذ منذ صدر شبابه يسيح بين بلاد العرب وسافر إلى الهند ومصر وتركيا وأوربا وروسية ولم يتعلق قلبه ببلد من البلاد على أنه وطن خاص له ، ولم يجعل من مذهبه الاجتماعى فكرة الوطنية بمعناها المعروف التى تجعل صاحبها يتعصب لها ويقف جهوده عليها ، بل جعل الشرق كله وطناً له ، يعمل دائباً لخلاصه من سلطة الأجنبى ، ومن الحكم الاستبدادى وهما محورا جهاده فى حياته ، وتطهير عقائده من الخرافات وتحرير أفكاره من الجمود . ومن أجل ذلك قال كلمته المشهورة: الشرق! الشرق ! لقد خصصت جهاز دماغى ، لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه .

قال برنارميشيل[١] : «وأيان ذهب جمال الدين كان يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها ولسنا نعدو الحق ، أو نكون مبالغين إذ قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة ، وحركات الانتقاض على المشاريع الأوربية التى نشاهدها فى الشرق ترد أصولها مباشرة إلى دعوته » .

وقال لوثروب :

« لقد عمت جهود هذا الرجل النابه البلاد الإسلامية كلها ، والممالك الأوربية ذات الصلات بها فأفغانستان وفارس وتركيا ومصر والهند ، اتصلت به جميعاً وأحست بأثره القوى الذى هزها هزاً عنيفاً .

فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت بالهياج ضد احتكار التمباك فى سنة ١٨٩١ م وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ تعهدها فى نشأتها الأولى بالنصح والإرشاد ثم والاها بالتشجيع والتأييد .

وقال الأستاذ براون[٢] : إن استيفاء النظر فى تاريخ السيد جمال الدين هو إحاطته بتاريخ المسألة الشرقية كلها فى الأزمان الحديثة ، يدخل فى ذلك تاريخ الأفغان والهند ويدخل فيها بوجه خاص تاريخ تركيا ومصر وإيران ، ومن هذه البلاد الإسلامية الأخيرة لا يزال تأثيره حياً .

ا ــ جهاده فى الهند

عندما ألم السيد ببلاد الهند ، وأرغمته الحكومة على مغادرتها ، كما علمت من قبل حتى لا يشعل عليها نار الثورة ويجعلها عليهم جحيما ، لم يدع هذه البلاد بغير أن يبذر فيها بذور الثورة ، ولقد كان مما قاله لأهل الهند عندما فارقهم ، وكانوا يبكون لفراقه !

« يا أهل الهند وعز الحق وسر العدل ، لو كنتم ، وأنتم تعدون بمئات من الملايين « ذبابا » مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم

---

(١) ص ١٤ الإسلام والتجديد .

(٢) ص ١٤ العروة الوثقى .

سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الآلاف، لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت « ذباباً » لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ويجعل فى آذان كبيرهم مستر غلادستون وقراً ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحرارا » .

ولما أتم كلامه ذرف الحاضرون الدموع ، فصاح فيهم بصوت عال صيحة قال فيها : « اعلموا أن البكاء للنساء ! والسلطان محمد الغزنوى ما أتى الهند باكياً بل شاكا السلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم » .

على أنه لم يكتف بهذه الصيحة التى تحيي الجماد ، وتبث روح الاستقلال وتحطم قيود الاستعباد، بل كان لا يفتأ يغذى ذلك الروح بالكتابة وتلقين الأفكار لمن كان يلقاهم من رجال الهند بمصر وأوربا . ولقد كان موقناً باستقلال الهند من بعده فقد قال للشيخ عبد الرشيد التتارى : يا ولد : إنك ستصلى صلاة الجنازة على القيصرية الروسية، وستحضر تشييع جنازة الإمبراطورية الإنجليزية فى الهند وقد تمت البشارتان معاً .

ب — جهاده فى إيران

وقد جاهد كثيراً فى إيران وقد قال لوثروب فى الصفحة الماضية إنه هو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت بالهياج ضد احتكار التمباك فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٥ أما قصة التمباك هذه فهى أن حكومة فارس أعطت حق احتكار التمباك وهو هناك بمنزلة القطن فى مصر إلى شركة إنجليزية ولم يكد السيد يعلم بذلك حتى أرسل خطاباً حاراً إلى رئيس المجتهدين فى إيران يندد على الحكومة لارتكابها هذه الخيانة الضارة بثروة البلاد فما لبث رئيس المجتهدين حتى أصدر فتوى بتحريم شرب التمباك وبيعه فى البلاد

حتى إن الشاه نفسه لم يجد ( النرجيلة ) التي كانت تقدم له في الصباح ، فاضطرت الحكومة إلى العدول عن هذه الاتفاقية لقاء نصف مليون جنيه أعطتها للشركة ، وكان من آثار ثورة فارس أن أطاحت برأس الشاه ناصر الدين وقال ضاربه عندما أنفذ فيه خنجره ! خذها من يد جمال الدين .

ج – أثره في تركيا

قال مستر بلانت الأرلندي الحر : « إن سعي العثمانيين في تحويل حكومتهم إلى دستورية في بادئ الأمر قد ينسب إلى شيء من آثار جمال الدين ؛ فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم .

« وقد ثبت أنه اجتمع ببعض رجال ( تركيا الفتاة ) وهم الذين قاموا بالانقلاب التركي وعرف منهم خطتهم فشجعهم ودعا لهم بالتأييد .

وظلت جمعية تركيا الفتاة تجاهد حتى قامت بثورتها الكبرى سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد .

وقال لوثروب : « ولما كان مقيما بالأستانة ، مهد بتهييجه المتواصل للحركة التركية الصغيرة الموفقة التي قامت سنة ١٩٠٨ » .

وقال : «إنه استطاع أن يحدث في الأوساط العلمية تأثيراً بعيداً بما ألقى من دروس ومحاضرات في الجامعة المنشأة حديثاً بتركيا» .

د – أثره في روسيا

قضى السيد ببلاد روسية أكثر من أربع سنين يبث فيها آراءه الحرة الجريئة . وزار عواصمها وكان القيصر في أول أمره حفيًّا به معظماً له مصغياً إلى ما يقوله إلى أن سأله مرة عن سبب خلافه مع شاه فارس فأجابه السيد : سبب الخلاف! الحكومة الثورية ، وضرورة اتباعها وأن الشاه ينفر من ذلك ، ولا يحب أن يعترف به ، فقال القيصر ؛ : إني أرى الحق في جانب الشاه ! إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ فأجاب جمال الدين في جرأة وفصاحة : أعتقد يا جلالة القيصر ، أن عرش الملك – إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء

له – خيراً له من أن تكون أعداء له يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام ! » فعلت – عند ذلك – وجه القيصر علامة الغضب فقطب حاجبه ! ولم يطل الحديث مع السيد ! وودعه بغير الصورة التى استقبله بها إذ كان وداعاً فاتراً ، ثم أوعز القيصر إلى أكبر رجال بلاطه أن يسرعوا متلطفين إلى إخراجه من روسية .

ومن جهاد السيد ضد القيصرية أنه كان متصلا بحركة التحرير التى كانت ضد القيصر ، وفى مرة حمّل تلميذه عبد الرشيد التتارى تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية فى عاصمة روسية رئيسها عم القيصر وقال له : اذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الغرندوق فلان ، واعلم أنك إما أن تقتل ، وإما أن تفوز وتغنم ، فأوصلها الشيخ عبد الرشيد ، فقام لها الغرندوق وقعد ، ثم أعاده بها إلى بلاد اليونان ليطبعها باللغة الروسية ، ويرسلها إليه ، وعرض عليه من المال ما يشاء فلم يأخذ إلا القدر الضرورى ولقى أهوالا كادت تذهب بحياته .

وقد علمت من قبل ما قاله للشيخ عبد الرشيد من أنه سيصلى صلاة الجنازة على القيصرية الروسية ، وسيحضر تشييع جنازة الإمبراطورية الإنجليزية فى الهند وقد تمت البشارة الأولى فى سنة ١٩١٧ بالقضاء على القيصرية ، وتمت البشارة الثانية فى سنة ١٩٤٧ بخروج الإنجليز من الهند .

### هـ – أثره فى مصر

مما لا ريب فيه أن جل أعمال السيد جمال الدين العظيمة إنما كان بمصر وذلك بأنه قد قضى فيها من الزمن ما لم يقض مثله فى غيرها فقد لبث فيها ثمانية أعوام كاملة يجاهد من أجلها بلسانه وقلمه : فى خطب ودروس يلقيها ، وأحاديث يبثها ، ومقالات يكتبها فى صحفه وغير صحفه ، ولكى يقف القارئ على شىء من ذلك ننقل ما قاله فى ذلك تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده :

« مال السيد جمال الدين إلى مصر [1] على قصد التفرج بما يراه من مناظرها

(١) جاء السيد إلى مصر فى المرة الثانية يوم أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ وهو يوافق ٢٣ مارس سنة ١٨٧١ .

ومظاهرها ، ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها . حتى لاقى صاحب الدولة رياض (باشا) فاستمالته مساعيه إلى المقام ، وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصرى . . كل شهر نُزُلاً أكرمته به لا فى مقابلة عمل ، واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم ، واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض دراً وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية ، طبيعية وعقلية ، وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الإسلامى ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم ، ولم يذهب إلى الأزهر مدرساً ، وإنما كان يذهب إليه زائراً . وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة .

عظم أمر الرجل فى نفوس طلاب العلوم ، واستجزلوا فوائد الأخذ عنه ، وأعجبوا بدينه وأدبه ، وانطلقت الألسن بالثناء عليه ، وانتشر صيته فى الديار المصرية .

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره ، وبرعوا — وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل . .

ومن عشر سنوات[1] ترى كتبة فى القطر المصرى لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه ، أو عن أحد تلامذته ، أو قلد المتصلين به ، ومنكر ذلك مكابر ، وللحق مدابر » .

هذا ما حسده عليه أقوام[2] واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض

---

(١) كتبت هذه الكلمة فى سنة ١٨٨٥ .

(٢) هؤلاء الأقوام هم بعض شيوخ الدين الذين قال فيهم الأستاذ الإمام عند احتضاره رضى الله عنه :

=

الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها . وتمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجالسه فيسمعون ما لا يفهمون ! ثم يحرفون فى النقل عنه ولا يشعرون، غير أن هذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله، ولم يزل شأنه فى ارتفاع ، والقلوب عليه فى اجتماع ، إلى أن تولى خديو مصر توفيق ( باشا ) ... فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصرى . هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٨٧٩ » .

وقال رحمه الله :

« وقد صاحبته من ابتداء شهر محرم سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية ( الفلسفية ) والكلامية وأدعوا الناس إلى التلقى عنه كذلك ، وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، بل ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ! ! »

مضى قول الأستاذ الإمام فى نصف أهالى مصر قبل سنة ١٨٧٦ [١] ووقفنا منه عند قوله :

« وبينما الناس على هذا . . إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه . . » ووعدنا بأن نتم الكلام هنا فهاك هذه التتمة ، قال الأستاذ الإمام :

---

= ولست أبالى أن يقال محمد   أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه   أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وكان التفاهم بين السيد وبين شيوخ الأزهر لا سبيل إليه ولا حيلة فيه، وقد قال أديب إسحاق فى تأبين السيد إنه جرت بين السيد وبين بعض علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين إلخ .

(١) ص ١٠

« جرت سنة الله فى خلقه بأن عظائم الأمور تتولد من صغارها ، كما أن ضخام الأشجار تبسق من جذورها ...

جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٢٨٦ هـ ( ١٨٦٩ م ) رجل غريب بصير فى الدين عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وركن إلى الإقامة فى مصر فتعرف إليه فى بادئ الأمر بعض طلبة العلم ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً لطلب الاجتماع به لتعرف ما عنده ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر من الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه فى تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة فى البلاد خصوصا فى القاهرة .

كل ذلك والحاكم القوى فى علو مكانه ، أرفع من أن يناله هذا الشعاع فى ضعف شأنه . ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطىء وينتشر فى الأنحاء على غير نظام إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا سنة ١٢٩٣ هـ ( ١٨٧٦ م ) حتى وجد الناس من أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسيا . .

وكثرة الأجانب فى هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الأوربية . . ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق إلى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التى كانت لا تزال إلى هذا العهد قاصرة على ما لديهم . فانطلقت فى إيراد

الحوادث ونشرها . . وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معروفاً من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمجاراة ما سبقها في نشر الأخبار ومناوأتها في المشرب ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة القاهرة .

لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وأنشأ الفصول الأدبية والعلمية في مواضع مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار ، وتهذيب الأخلاق فتسابقت إلى ذلك الكتاب وتبارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال ، أو في أرض غير أرض الحبال .

ومن يطلع على أعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق ، والأهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرناه » .

وهذه الجرائد الثلاث الأولى كان السيد جمال الدين هو الموعز بإنشائها ، والسبب في ظهورها ، وكان السيد ينشر كذلك مقالاته في جريدة الأهرام .

وكان في كل ما يكتب يوقع باسمه الصريح وأحياناً باسم ( مظهر بن وضاح ) .

وقال الكاتب الكبير تشارلز آدمى في كتابه « الإسلام والتجديد في مصر » ما نختصره هنا[1] :

« لم ينشأ الدافع الأول إلى حركة الإصلاح في مصر نفسها ، بل كان صدى تعاليم السيد جمال الدين الأفغاني وأثراً من آثاره ، وكان جمال الدين الممثل النابه لفكرة الجامعة الإسلامية ، والمدافع القوى الشكيمة عن الإصلاح الشامل في الإسلام ، وكذلك كان العامل الجوهري الأول في إحياء حركة التجديد في مصر .

---

( ١ ) ص ٤ وما بعدها .

« وكانت عناصر التحرر التى نشر لواءها جمال الدين فى مصر وقوى سلطانها فى البلاد ، تتوسم إنفاذ إصلاحات عظيمة على يدى توفيق ، ويظهر أنه قبل ارتقائه إلى العرش كان قد عاهد جمال الدين وخاصته على أنه إذا آ ل إليه الأمر أيدهم فى جهودهم الإصلاحية ، ولكنه لم يكد يرتقى العرش حتى أصدر أمره بنفى جمال الدين !

ويمكن أن نعدّ الثورة العرابية من آثاره فنى سنة ١٨٨٢ كانت حركة الشباب المصريين التى نماها جمال الدين قد انتهت إلى الثورة العرابية وعندما كانت الثورة قائمة فى مصر على قدم وساق ، دعته حكومة الهند من حيدرآباد وألزمته بالإقامة فى كلكتا وأقامت عليه الرقباء » .

وقال المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان فى كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية تحت عنوان[1] :

« حركة التجديد الدينى — جمال الدين الأفغانى » :

« مهما يكن من أمر فقد كان الإسلام ، ولا يزال هو المهيمن على الحياة الدينية فى مصر ، وإنما يرجع الفضل فى ذلك — فى المحل الأول — إلى تأثير جمال الدين . . .

ولما انتقل من إستانبول إلى القاهرة ، استقبل استقبالاً حاراً ، وهنا نشط فى حرية ومن غير أن تكون له صفة رسمية حتى الثورة العرابية ، وبعث فى نفوس الشبان المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوربية ، إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه العلمية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه ديناً أكثر إمعاناً فى مضمار الرقى » .

---

(١) ص ١٠٢ و ١٠٣ ج ٤ .

## محفل الماسون

ومن أعماله بمصر أن أنشأ محفلاً ماسونيًّا كبيراً ضم حوالى ٣٠٠ عضو من صفوة رجال مصر وقد عظم شأن هذا المحفل حتى إن توفيق(باشا)—وكان يوم أن أنشىء هذا المحفل — وليًّا للعهد ، طلب أن ينضم إليه .

وقد استحدث له السيد نظاماً لا نظير له فى المحافل الماسونية الأخرى ذلك أن جعل منه شُعباً متعددة قسمها على نظارات( وزارات ) الحكومة فجعل لكل وزارة شعبة خاصة تسعى فى قضاء أمور الناس بها وتعمل على إنصاف المظلوم من أعمالها .

وكان السيد أول من طالب الحكومة بمساواة الضباط المصريين بالضباط الشراكسة فى جميع الحقوق من حيث المرتب والترقية والعمل والاختصاص وكان بينهم تفاوت كبير يومئذ فهو قد سبق عرابى فى هذا الأمر .

ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نفصل عمل جمال الدين بمصر أو جهاده فى سبيلها وقد صدق فى كلمته المؤثرة التى قال فيها :

« وعزة الحق[1] إن ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت من الهمم ، وما حذرت به من سوء المصير ، او تلى على الأموات لتحركت أرواحهم ، ولرفرفت على أجداثهم ، ولأحدثت لأعدائهم أحلامًا مزعجة، ومرائى مروعة» .

كاد أن لا يخلو سطر من العروة الوثقى ، إلا وفيه ذكر « مصر » ولا براهين وأدلة على ظلم الإنجليز إلا ويتمثل فى « مصر » ، ولا خوف من شر مستطير يفكك[2] أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه من التهاون فى أمر « مصر » .

---

( ١ ) كانت يمين السيد دائماً هذا القسم « وعزة الحق » وكان يضيف إليه فى بعض الأحايين هذا القسم الآخر « وسر العدل » .

( ٢ ) وقد تم هذا التفكك والحمد لله وأصبحت تركيا لا تحكم إلا بلاد الترك وحدها .

ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية — والعرب عموماً — نُفُولاً — وبعروقها اتصالاً .

ولا يَفوتن أهل الشرق العلم ، بأن كل مدينة وكل مقاطعة إسلامية شرقية هى بمنزلة « مصر » وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم ؛ فالشراك لها منصوبة ، والسقوط « والعياذ بالله » قريب! إلا إذا نشطت العقول وعمل أولو العزائم ، ولمت الأمم الشرقية شعثها ، ووحدت كلمتها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ، وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها .

ما قرعتُ آذان المسلمين — والشرقيين عموما — بالحجج القاطعة ، وهتكتُ أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيات المسافة فى الذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ، ويلم شعثه ، ويمد بعضهم لبعض يداً ؛ عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم[1] .

و — أثره فى باريس

عرف من تاريخ السيد جمال الدين أنه فى سياحاته إلى أوربة قضى فى باريس بضع سنين وأنه قام وهو فى هذه المدينة بعملين جليلين — غير ما كان ينشره فى الصحف ويلقيه من أحاديث — بقى أثرهما ظاهراً على وجه الدهر .

أحدهما : مقابلته للفيلسوف الكبير أرنست رينان ، ومساجلته إياه ، وتعريفه بحقيقة الدين الإسلامى وأنه دين ، ينصر العلم ويمقت الجمود ، لا كما يفهمه كثير من علماء أوربة ، كان منهم — رينان — من أنه عدو العلم وحليف الجمود .

وثانيهما : إنشاء صحيفة « العروة الوثقى » .

ولا بد أن نسوق كلمة صغيرة عن هذين العملين العظيمين :

---

( ١ ) ص ٢٤٣ من خاطرات جمال الدين .

## جمال الدين ورينان

كان السيد جمال الدين فى باريس منذ أول سنة ١٨٨٣ وهناك لقى الفيلسوف « رينان » ويذكر رينان هذا اللقاء فى كتاب له مؤرخ ١٨ مايو سنة ١٨٨٣ إذ يقول :

« لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع إلا من القليلين ، وأثر فىّ تأثيراً قوياً وجرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام ، موضوع محاضرة فى السربون ، والشيخ جمال الدين خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى أعلناها وهى النظرية القائلة : بأن قيمة الأديان بقيمة الأجناس التى تعتنقها ، وقد خيل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أننى أرى وجهاً لوجه : أحد من عرفتهم من القدماء ، وأننى أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحداً من أولئك الملحدين العظام ! ! الذين ظلوا يعملون خمسة قرون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

وقد ألقى « رينان » محاضرته التى وعد بها وموضوعها « الإسلام والعلم » فى السربون فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣٣ وكان لها أثر بعيد فى الشرق والغرب جميعاً .

وقد شملت محاضرة مسيو « رينان » — كما جاء فى رد جمال الدين نقطتين أساسيتين :

فقد حاول المفكر العظيم أن يبرهن على أن الديانة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ، وأن الأمة العربية غير صالحة — بطبيعتها — لعلوم ما وراء الطبيعة .

---

( ١ ) رجعنا فى هذا البحث إلى المحاضرة التى ألقاها الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله فى دار الجامعة المصرية يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ عن الفيلسوف رينان وجمال الدين وقد نشرت بجريدة السياسة بالعددين ١٢٣ و ١٢٤ الصادرين فى يومى ٢١ و ٢٢ مارس سنة ١٩٢٣ والمحاضرة طويلة وقيمة لمن يرجع إليها .

وقد قال جمال الدين فى رده :

« يظهر أن المسيو رينان يقول : إن هذه النية الصالحة ذبلت فى أيدى المسلمين كما يذبل النبات تلفحه الصحراء الساخنة .

وإن المرء ليتساءل – بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها – أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها ، أم منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ؟ أم أن اختلاف الشعوب التى اعتنقت هذا الدين ، أو حُملت على اعتناقه بالقوة، وعاداتها ومواهبها الطبيعية هى جميعاً مصدر ذلك !

ولا ريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون إجلائه هذه النقطة . . . » وتعرض السيد بعد ذلك للكلام على نقطتى المحاضرة فبين عند الكلام على النقطة الأولى :

« إن الدين لم يكن عنه مناص فى سوق الأمم عند نشأتها إلى كمالها . وإن كل أمة – إبان نشأتها – لا تكون قادرة على أن تسترشد بالعقل الصافى ، إذ تنتابها تصورات مفزعة لا قبل لها بالتخلص منها » .

ثم بين حاجة الأمم إلى الأديان فقال :

« إن الأمم جميعاً إنما شبت عن طوق الهمجية وخرجت إلى ما هو راق من مراتب المدنية بتلك التعاليم الدينية ، إسلامية كانت أو مسيحية ، أو وثنية » .

ثم أخذ السيد يتكلم عن النقطة الثانية فقال منافحاً عن العرب ما ملخصه :

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس ما كان شهرتهم فى القدم ، لكن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ، ووضحوها وبلغوا فيها مرتبة الكمال ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً يدل على سلامة الذوق ، وينطوى على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والألمان والإنجليز لا يبعدون عن رومة وبيزانطة بُعد العرب عنهما – وهم الذين كانت عاصمتهم بغداد – وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز العلوم التى كانت

مدفونة فى تينك المدينتين العظيمتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة البرانيس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، وأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطاطاليس بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم .

إلى أن قال : وإن العرب لما احتلوا إسبانيا وبلاد الأندلس لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً .

وختم جمال الدين رده بقوله :

ولن يقف القتال بين العقيدة والبحث الحر ، أو بين الدين والفلسفة ما دامت الإنسانية على قيد الحياة ، وهو قتال عنيف أخشى أن لا يكون النصر فيه للفكر الحر ، لأن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم — على ما به من جمال — لا يرضى الإنسانية كل الرضا ، وهى التى تتعطش إلى المثل الأعلى ، وتهوى التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها .

## رد رينان على جمال الدين

وبعد ذلك رد رينان على السيد جمال الدين بقول مملوء بالمجاملة ، والاعتذار عن بعض الملاحظات وتأييد رأيه فى بعض الموضوعات .

وإنا نجتزئ من هذا الرد بما يلى :

« ولست أرى فى البحث النفيس الذى عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقاً ، فالشيخ لا يعترف بالفروق التى يحملنا عليها النقاد والتاريخيون حيال العظمة المركبة التى يطلقون عليها كلمة دول وفتوحات .

لقد خالنى الشيخ غير منصف فى أنى لم أوف الكلام حقه ، ولم أطل القول فى الفكرة القائلة بأن الأديان جميعاً خصيمة للعلم ، وأن المسيحية فى هذا لا تقل عن الإسلام . وهو قول لا يعتوره الشك .

وإذا كنت لم أطل القول فى هذه النقطة فلأن آرائى فى هذا الشأن معروفة ، وأنا لم أقل إن المسلمين جميعاً بلا تمييز فى الجنسية جهلة ، أو أنهم سيبقون كذلك! بل قلت إن الإسلام يضع فى طريق العلم عقبات كبيرة . . .

إن واجب الهيئات الاجتماعية المتحضرة أن تجعل القاعدة العليا : أن حرية الإنسان ومكانته فوق كل شيء ، وأن لا تهدم الأديان بل تعاملها معاملة تنطوى على حسن النية فتعتبرها من إلهام الطبيعة الإنسانية .

وختم رينان رده بقوله :

ويلوح لى أن الشيخ جمال الدين قد زودنى بطائفة من الآراء الهامة تعيننى على نظريتى الأساسية وهى :

أن الإسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية فى الأراضى الإسلامية . ولكن فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية وهى فى حظيرته فكان هذا من سوء حظه . . . » .

## جريدة العروة الوثقى

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الإمام محمد عبده يقول :

إن الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد جمال الدين ، ليس لى منها فكرة واحدة أما العبارة كلها فإنها لى ليس للسيد منها كلمة واحدة .

أنشئت هذه الجريدة — كما قلنا — بباريس وصدر العدد الأول منها فى جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م .

وكان مدير سياستها السيد جمال الدين الأفغانى ورئيس تحريرها الأستاذ الإمام محمد عبده رحمهما الله وقد صدر منها ثمانية عشر عدداً فى ثمانية أشهر .

وكان آخر عدد صدر منها فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م .

## منهج الجريدة

ولقد بينت الجريدة منهجها فقالت :

● ستأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط ، فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت .

● ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ، ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط . والبواعث التى دفعت إلى مهامه حيرة ، عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت . وضل المرشد حتى لا يدرى السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة . والمدهشات القاتلة .

● وتكشف الغطاء — ما استطاعت — عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم ، وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العلة بلغت حدها .

● وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم ، وانحطاط العزائم ، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الأدبار عن المطلوب وهو تحت الجنح ، ويكفى فى الوصول إليه عطفة نظر ، وقطع بضع خطوات قصيرة .

● وإن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأحوال التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها ، ولا ضرورة فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى .

● وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف ،

وتجعل أهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المديح بأشكال المجاملة شفافاً ينم عما وراءه، وتنقب عن المسالك الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات.

● وتهتم بدفع ما يُرمى به الشرقيون عموماً، والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم، ولا وقوف على حقائق أمورهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون، ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية، وما يتداوله السياسيون فى شئونهم مع اختيار الصادق، واتقاء الثابت.

● وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم، وتمكين الألفة فى أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينها، والسياسات القويمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين.

● ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها، لا تظهر إذا أدلجوا، ولا تنجد إذا أغوروا، وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وترسل إلى الذين تعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل..

## ز ـ جمال الدين أول شرقى اهتمت الجرائد الإنجليزية بكلامه ورعب الإنجليز من العروة الوثقى ومقاومتهم إياها

لما استقرت قدما السيد جمال الدين فى مصر سنة ١٨٧١ وأنشأ يربى التلاميذ والمريدين لإعدادهم للعمل السياسى والإصلاح الفكرى؛ كان أول ما نشره فى جريدة مصر التى أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنوانها: «البيان فى الإنجليز والأفغان» وصف فيها قومه الأفغانيين بقوله:

«هذه الأمة المعروفة بعزة النفس، وشدة البأس التى لم ترض الدخول تحت حماية الخضجر[1] المبتلى بجوع البقر، والاستسقاء الذى لم يشبعه ابتلاع مثنى

(١) الخضجر بكسر ففتح – الواسع البطن وهو من أسماء الضبع.

مليون من النفوس [١] ولم تروه مياه الكنج والتيمس، بل فغرفاه ليلتهم بقية العالم، ويجرع مياه النيل ونهر جيحون ».

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الإنجليزية، وأظهرت الإعجاب به وبها وردت عليها .. فكان أول كاتب شرقى اهتمت الجرائد الإنجليزية بكلامه .

ولما عزم على إصدار جريدة العروة الوثقى حسب لها الإنجليز كل حساب لما يعلمونه من أثر السيد الفعال فى السياسة الشرقية، وخصوصاً المصرية، فجهر بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها حتى قبل صدورها .

وقد بين السيد ذلك فى جريدة العروة الوثقى إذ كتب مقالاً طويلاً فى العدد الخامس الذى صدر فى ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ قال فى ختامه :

« .. فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى. إذا دعا الحال فإن أنصار الحق كثيرون » .

## مصادرة العروة الوثقى فى جميع البلاد

وبعد أن ظهرت جريدة العروة الوثقى ضاق الإنجليز بها ذرعاً . فضيقوا الخناق عليها، وسدوا جميع النوافذ فى وجهها، وفى مصر انعقد مجلس النظار وبعد أن بحث فى أمرها أصدر قراره بأن تشتد نظارة الداخلية فى منعها عن دخول الأقطار المصرية، وأمرت إدارة البريد بمراقبة ذلك وأن كل من توجد عنده نسخة من هذه الجريدة يغرم مبلغاً من ٥ جنيهات إلى ٢٥ جنيهاً .

---

(١) يعنى أهل الهند – وهذا كان إحصاؤهم يومئذ أما اليوم فعددهم أكثر من ٣٠٠ مليون نسمة .

## العروة الوثقى كانت تعمل للشرقيين عامة – لا للمسلمين خاصة

كان قد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الإسلامية فى العروة الوثقى ، وظنوا أنها خاصة بالمسلمين ، فأزالت الجريدة هذه الشبهة بعبارة واضحة نشرت فى العدد الثامن الذى صدر منها فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ . وهذا نصها :

« لا يظنن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ، ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ؛ فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا ؛ ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصاً ، من تطاول الأجانب عليهم والإفساد فى بلادهم ، وقد تخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون ، وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بجميع خيراتها . . . » .

## ٣ – المصلح الدينى

### ا – مذهبه الدينى

قال الأستاذ الإمام : « أما مذهبه فحنيفى حنفى ، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض على مذهبه .

أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد ، يكاد يلتهب غيرة على الدين » .

هذا ما ذكره الأستاذ عن شيخه ، ولكن السيد انتهى به الأمر إلى أن أصبح مجتهداً لا يقلد مذهباً من المذاهب .

وإليك ما قاله عنه صديقه الحميم مستر بلانت :

« وكان يوحي الشجاعة بجرأته ، وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب أبي حنيفة ( أى الذى كان يتبعه فى أول حياته ) فيقبل الناس نقده بما لم يكن أن يتيسر لرجل غيره » .

ب — إصلاحه الدينى

وكان همه أن يطلق العقول من الأغلال التى قيدتها طول الأجيال الماضية ويقيم الحجة على أن الدين ليس شيئاً ميتاً ، ولكنه نظام يصلح الإنسانية المتطورة فى جميع العصور فهو لا يأبى التطور .

ج — غايته

تكلم الدكتور تشارلز آدمس عن الغاية التى كان يرمى إليها السيد فقال[1] :

« كانت الغاية التى يرمى إليها جمال الدين ، والغرض الأول فى جميع جهوده التى لا تعرف الكلل ، ومن إثارته للنفوس وتهييجه المتواصل للناس . توحيد كلمة الإسلام ، وجمع شمل المسلمين فى سائر أقطار العالم ، كما كانت الحال أيام الإسلام المجيدة ، وعصره الذهبى ، وقبل أن توهن منه الفرقة والانقسام . وقد باتت أقطار المسلمين غارقة فى وهدة الجهل واليأس فأصبحت فريسة للاعتداء الأوربى ، وقد آلمه أشد الألم أن يرى الأمم الإسلامية يضعف أمرها وترث قواها ، وكان يعتقد أن الأمم الإسلامية لو نفضت عن نفسها كابوس الاحتلال الأجنبى وتحررت من تدخل الدول الأجنبية فى شئونها وصلح حال الإسلام وتوافق مع مقتضيات الحياة فى العصر الحاضر لأصبح المسلمون قادرين على تدبر أمورهم تدبيراً حسناً دون أن يعتمدوا على الأمم الأوربية ويصطنعوا وسائلها ، وكان يرى أن الإسلام فى جميع مسائله الجوهرية دين عام للعالم أجمع قادر بما فيه من قوة روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة فى كل جيل » .

وقال المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان فى كتاب « تاريخ الشعوب الإسلامية » مثل هذا كما تقدم ونعيد هنا ما قاله تحت عنوان :

---

( ١ ) ص ١٤ و ١٥ من ( كتاب الإسلام والتجديد فى مصر ) .

« حركة التجديد الدينى — جمال الدين الأفغانى »[١] :

« مهما يكن من أمر فقد كان الإسلام — ولا يزال — هو المهيمن على الحياة الدينية فى مصر ، وإنما يرجع الفضل فى ذلك — فى المحل الأول — إلى تأثير جمال الدين .

ولما انتقل إلى القاهرة استقبل استقبالاً حارًّا — وقد بعث فى نفوس الشبان المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوربية — إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه العالية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه دينًا أكثر إمعانًا فى مضمار الرقى » .

د — باعث الروح العصرية فى الإسلام

ولما تكلم مستر بلانت عن حركات الإصلاح الإسلامى قال : إنها انحصرت قبل ظهور جمال الدين فى التقهقر القديم ولم تسر فى طريق التطور ؛ وجاء فى القرنين الأخيرين كثير من الواعظين ووجد كذلك فى مصر وتركيا ؛ مصلحون ، ولكنهم لم يوفقوا بين إصلاحاتهم وبين قواعد القرآن وتقاليده ثم قال :

« أما نبوغ جمال الدين فى اجتهاده فى حمل الممالك التى وعظ فيها على أن تعيد النظر فى الموقف الإسلامى كله ، وأن تستبدل بالتمسك بالقديم المتحرك إلى الأمام حركات أدبية منسجمة مع العالم العصرى ، وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة ، من إقامة الحجة على أنهما ، او أحسن تأويلهما معا — لكان الإسلام كفئوا لإحداث تطور راق عظيم .

وقال مؤلفو تاريخ العرب المطول[٢] :

ويعد جمال الدين الباعث الرئيسى الأول للروح العصرية فى الإسلام .

---

(١) ص ١٠٢ و ١٠٣ ج ٤ .

(٢) ص ٨٨٧ و ٨٨٨ .

وقال الكاتب الكندى الكبير وليام مكلورى فى كتابه « حركات التنوير فى الشرق الأوسط » :

« وكانت أقوى مشاعل حركة التنوير القوى والفكرى فى الشرق ؛ هى التى حملها جمال الدين الأفغانى ، الذى تخرج على يديه ومن مجالسه الكثيرون من أبناء مصر والبلاد العربية » .

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده إن شيخه عندما جاء إلى مصر « وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر » .

« وإنه فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس ، لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ؛ فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة فى البلاد خصوصاً فى القاهرة .

هـ — تساميه عن التعصب

قال الأستاذ الكبير مصطفى عبد الرازق :

« لقد تسامى السيد جمال الدين عن كل معانى التعصب لفرقة من فرق المسلمين ، بل هو قد تسامى عن كل معانى التعصب الضيق الذى يلقى بين الناس إحناً وعداوات ، وإذا كان السيد جمال الدين قد أثار فى الشرق عاطفة التذمر من الغرب فما ذاك إلا لأنه كان عدواً للظلم كله ، وكان يحارب فى الشرق ظلم الظالمين ، وكان يريد للشرقيين أن لا يتحملوا من الغرب ظلماً ولا هضماً » .

و — التوفيق بين أهل السنة والشيعة

وقال آدمس :

« وكانت جهوده فى عقد أواصر الألفة والوحدة بين أهل السنة والشيعة ،

تعتمد على التوفيق الودى وعلى التسامح ، ولهذا خطوه السياسى ، مع دلالته على روح التسامح الدينى الذى كان يدرك ضرورته لرأب الصدع ، ولمّ الشمل والقضاء على الفرقة التى قدم عهدها فى العالم الإسلامى » .

## ٤ ــ الزعيم السياسى

ا ــ مقصده

عبر الأستاذ الامام محمد عبده وهو أول من يعرف أغراض أستاذه عن مقصد شيخه السياسى فقال :

« أما مقصده السياسى الذى وجه إليه أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته ، وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله ، فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده . ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ــ وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها » .

ولم يكن السيد وهو الفيلسوف الحكيم الذى يعرف طبائع العمران ونظم الاجتماع ، ليقصد دولة من الدول الإسلامية تضم العالم الإسلامى كله تحت ظلها ، لأن هذا وهو فى نفسه مستحيل ، فإنه يوجد ضغائن وإحن لا تنتهى بين هذه الدولة التى تجمع العالم الإسلامى تحت راية واحدة ، وبين دول الغرب مما ينشأ بينهما من العصبية الدينية الممقوتة التى لا بد منها فى مثل هذه الحالة .

ولهذا صرح السيد وهو فى معرض تنبيه المسلمين وحثهم على الوحدة بقوله :

« لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيرا ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم ( القرآن ) ، ووجهة

وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى جهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه » [١].

ب — وسائله لتحقيق غاياته

اتخذ السيد جمال الدين طوال حياته — لتحقيق غاياته — « وسائل الثورة السياسية » وكانت هذه الوسائل هى ما يتفق مع مزاجه ، وقد ظن أنها أسرع الطرق للوصول إلى ما يبتغيه من تحرير الشعوب الإسلامية من نير المستعمرين فى أقرب وقت ، حتى إذا ما تحررت هذه الشعوب واستمتعت بالحرية ، أمكنها تنظيم شئونها .

وكان من رأيه أن الإصلاح التدريجى بطىء الخطى .

وكان الأستاذ الإمام محمد عبده — وهو تلميذ السيد الأكبر ، والذى شاركه فى جهاده بمصر وباريس — على غير ذلك ، فقد كان يرى أن اليقظة الفكرية والدينية هما السبيل إلى تحقيق أغراض الأمم الإسلامية .

ومما لا ريب فيه أن السيد وتلميذه قد كان لهما الفضل فى تمزيق ثوب المحافظة والرجعية التى التحف بها الإسلام منذ العصور الوسطى .

ج — مفاوضة الإنجليز معه فى أمر السودان

لما ظهر أمر محمد أحمد السودانى — الذى ادعى المهدوية — وأخذ يستفحل أمره ، اتخذ الإنجليز من تلك الحادثة ذريعة للتدخل فى شئون مصر بحجة قمع ثورة المهدى السودانى [٢] فكتب السيد جمال الدين فى العروة الوثقى مقالات شديدة يحذر الإنجليز فيها عملهم ، ويلفت نظر كبير وزرائهم حينئذ ( مستر غلادستون ) إلى سوء مصير الجنرال غردون [٣] وأن نجاح الإنجليز فى الشرق لا يكون بهذه

---

( ١ ) العروة الوثقى .

( ٢ ) كانت مصر والسودان حينئذ أمة واحدة .

( ٣ ) كان غردون قائد جيوش الإنجليز فى السودان .

الوسيلة ، وأثبت ذلك كله بأدلة قاطعة .

ولما اشتدت حملات السيد فى مسألة السودان اهتم بها رجال السياسة فى العالم وأقضّت مضاجع كبار الإنجليز — حتى اضطر اللورد ( ساليسبورى ) و ( تشرشل ) أن يستدعيا جمال الدين ليأخذا رأيه فى أمر المهدى وظهوره ، فسافر إلى لندن واجتمع بهما وبين لهما سوء المصير من انتهاج سياسة الإنجليز فى مصر والسودان ، وموضع خطأ هذه السياسة نحو دول الإسلام فى الشرق عامة.

وبعد أخذ ورد فى الحديث مع السيد اختصر اللورد ساليسبورى الكلام فقال للسيد :

إن بريطانيا تعلم مقدرتك ، ونحن نقدر رأيك قدره ، ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال . لذلك عولنا على أن نرسلك إلى السودان سلطاناً عليه لتستأصل جذور فتنة المهدى وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه .

فأجابه جمال الدين بقوله : تكليف غريب ، وسفه فى السياسة ما بعده سفه !

« اسمح لى يا حضرة اللورد أن أسألك ، هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها[1] ، وصاحب الحق الخليفة الأعظم جلالة السلطان[2] حى يرزق ، ولديه من القوة ما يذلل به كل صعب وفتنة » .

ثم استطرد يقول :

« إن الإصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله ، وما تبحث له

---

( ١ ) هذا هو الحق الذى لا ريب فيه .

( ٢ ) كانت مصر حينئذ تابعة للدولة التركية ومن كان يقول بغير ذلك تبتلعه السجون أو يكون خارجاً على السلطان .

من الوسائل فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، ألفت نظرها ونظر كبير رجالها حضرة اللورد إلى – إيرالندا ، وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الإصلاح الحقيقى لبلادهم! فلماذا لا تجيبون سؤلهم وتصلحون أمرهم ؟ وهم أقرب إليكم من حبل الوريد ، وبينكم من الصلات ما هو معدوم لكم فى مصر والسودان وغيرهما من ممالك الشرق » .

نبهت عند ذلك اللورد ساليسبورى وفوجئ بصدمة لم تكن فى حسبانه ، ولم يحر جوابا ؛ إذ كان ينتظر من السيد سجود الشكر لسلطان عظيم أتاه بدون تعب. وقال للسيد كلاماً معناه – سننظر فى الأمر وودعه بقوله ، مصحوب بالسلامة .

وقد أهتمت الجرائد الإنجليزية بهذه المقابلة وما جرى فيها خصوصاً ما كان منها مواليا لقضية الأرلنديين من الإنجليز الأحرار .

ولم يخرج السيد من لندن إلا كانت أنديتها السياسية تضج بالحديث عما أجاب به السيدُ كبيرَ وزراء الإنجليز ، وكيف يخاطب شرقى ! وزيراً عظيماً بمثل هذه اللهجة التى لم تكن معروفة من أى شرقى قبله .

وقد كان السيد جمال الدين يعتبر – بحق – أن السودان جزء متمم لمصر .

## ٥ – الفيلسوف الحكيم

ا – مذهبه الفلسفى

. . كان المحيط العلمى الذى يتمثل فى خراسان ( أفغانستان ) ، وبختونستان وشمال الهند من القرن السابع عشر حتى أيام السيد – أكثر ازدحاما وازدهاراً بالعلم والحكمة والفلسفة من أى قطر آخر من الممالك الإسلامية ، ولا سيما فى المنطق والفلسفة والكلام . .

وحدث تطور كبير فى المناهج المدرسية فى تلك القرون الثلاثة الأخيرة فكان علم الكلام محشوًّا بالفلسفة ، والفلسفة مشوبة بالتصوف « الوحدة الوجودية » ووحدة الوجود كانت ملفقة بالأدب ، وهذا شىء يرى فى تلك المناطق ، ولا يرى

فى البلاد العربية . وهذه النزعة فى الدراسة قد بدأ بها أبو على بن سينا فى آخر كتابه المعروف بالإشارات ، واتبعه فى هذا السلوك جلال الدين الدوانى والشيخ شهاب الدين السهروردى وملاّ صدرا ومحمد جرنفورى وكثيرون من أمثالهم فهؤلاء العلماء كانوا فلاسفة وكلاميين وصوفيين وأدباء .

فالسيد جمال الدين فى بدء شبابه — كأى طالب أفغانى — كان من هذا القبيل ، تعلم الدين والفلسفة والتصوف والأدب ، وأتم تحصيل دراسته على أكمل وجه .

ولقد سمعت أن السيد تتلمذ على القاضى بشد والحافظ دراز وحبيب الله القندهارى . .

على أن السيد قد نهم بالعلم أشد النهمة ؛ فلم يقف عند هذا الحد ، بل جاهد كثيراً فى سبيل الاطلاع على كل ما تبلغ إليه المدارس الفكرية (السياسية والفلسفية والعلمية الحديثة) .

وكل ما تعلمه السيد فى المدرسة أو ألهمه من الآفاق ، أو طالعه فى الكتب — كان ذلك كله إنما يدور حول الأمور الاجتماعية والسياسية — وهذا هو دأب الفلاسفة الأقدمين ، ذلك بأن هؤلاء الفلاسفة كانوا أول ما كانوا أخلاقيين يكشفون عن أخلاق الفرد والمجتمع . .

وكانت المسائل الاجتماعية عند السيد جمال الدين هى مستقر أو مصدر فكرته ، إلى حد أنه كان يحاول أن يجعلها مقياساً للأمور الطبيعية أيضاً كما فعل ذلك فى رده على الدهريين .

ومع أن أساس تعاليم السيد جمال الدين الأساسية كانت يونانية (أرسطاطاليسية) — وهذا أساس مدارسنا فى الشرق الإسلامى — والسيد فى بعض الأحيان فى رده على الدهريين يتشبث بالتناهى واللاتناهى ، وبالجوهر والعرض ، وبالجزء الذى لا يتجزأ — كما كان شأن أرسطو — ولكنه فى غالب الأحيان ، يهجم على كل معسكر من الدهرية بنفس السلاح الذى استعملته المدرسة الحديثة — وهذا ما يعطيه صبغة

النبوغ والعبقرية بلا شك ولا نزاع .

فشخصية السيد الاجتماعية كانت كالمنظومة الشمسية فى غاية النظام والإتقان وكانت كل مشاعره تدور حول مركز واحد — هو الأمور الاجتماعية أو « الأشياء الإنسانية » كما سماها أرسطو . .

وكان الهدف والغرض من (الأخلاق والسياسة) عنده هو « الكمال » بالمعنى الذى كان يفكر فيه الشيخ أبو على بن مسكويه وبالطريقة التى أشار إليها هيجل وكومت ، لا بالأصول التى ذهب إليها لامارك وداروين — وهو عبارة عن الانكشاف الروحى ، وتصعيد الغرائز والتخلق بأخلاق الله .

فالسيد فى تلك الناحية — كان صوفياً . . .

ومن العجيب أن السيد كان مطلعاً على كل مناهج المدارس الفكرية والطبيعية والاجتماعية التى وجدت فى أوربا خلال القرن السابع عشر والثامن عشر ، حتى التى وجدت فى العصر الحاضر بروحها وجوهرها ومؤداها — وكان قد درس الطبيعيات والبيالوجيا والتاريخ الطبيعى الحديث والنشوء والارتقاء كما اطلع على ما تدرسه المدارس السياسية على اختلافها (الديموقراطية) والاشتراكية ، والشيوعية ، وكان جرحه وتعديله ونقده ورده — بفكرة اجتماعية يبعثها الدين ويسيرها العقل ويقودها الكمال الإنسانى .

فالسيد كان فى دينه موحداً ، وفى سياسته داعياً بالوحدة ، وكان يربط بين أجزاء الكون بعقيدة وجود الله الذى هو أصل الوجود ، ومنبع الشعور ، ومصدر الإرادة ، وهذه كانت فكرته الصوفية — وبهذه العقيدة كان يربط بين الروح والجسم والمادة والمعنى ، وبين النظام الطبيعى والنظام الأدبى .

فالصوفى بطريقة وحدة الوجود — التى كان السيد يسلكها — يرى الوجود الحقيقى فى الله سبحانه وتعالى ، ويرى المادة والقوة والشعور فى صفاته ، ويرى أن الكون مرآة لوجوده ، وأن أجزاء الكائنات مظاهر لأسمائه الحسنى ، فمن سعته كونت الطبيعة

ومن علمه – سبحانه – خلق الشعور – كما يقول سبنوذا . ( والله واسع عليم )[١] –

ويروى عن السيد : أنه كان يحاول أن يحل مسألة الأقانيم الثلاثة عند المسيحيين أعنى « الآب والابن وروح القدس » بنظرية وحدة الوجود بمعنى أن الثلاثة هى بمثابة ثلاثة مظاهر لحقيقة واحدة ، كما كان سقراط يقول : إن الخير والحق والجمال ، ثلاثة مظاهر للحقيقة ، ومن هذا يظهر أن السيد كان يحاول أن تتسع الوحدة بين المسلمين والمسيحيين ، الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة ، وتعاون عريق منذ فجر الإسلام »[٢] . .

ب – منزلته من العلم

قال الأستاذ الإمام محمد عبده يصف منزلته من العلم[٣] :

« أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها .

لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها ، كل موضوع يلقى إليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه . ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كان ذهنه عالم الصنع والإبداع وله لسَن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد ، إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خاصم أحداً إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه .

وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون – وبالجملة فإنى

---

( ١ ) هذه آية من القرآن .

( ٢ ) هذه الصفحات مقتبسة من بحث نفيس بقلم العلامة الجليل الأستاذ صلاح الدين السلجوقى سفير أفغانستان بالجمهورية العربية المتحدة .

( ٣ ) ص ٢٤ من مقدمة رسالة الرد على الدهريين .

لو قلت: إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل، ونفوذ البصيرة. هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقال سليم عنحورى يصف مجلس علمه[١] :

كان يجلس فى صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم فى سمطها اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه، وبسط أعوص الأحاجى لديه، فيحل عقد أشكالها فرداً فرداً، ويفتح أغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربى مبين، لا يتلعثم ولا يتردد، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال، فيدهش السامعين ويفحم السائلين ويبكم المعترضين، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً.

وقال عن طريقته فى انشاء ما ينشئ من المقالات :

وإذا رام إنشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل إبراهيم اللقانى إلقاء قلما يراجعه ويصلحه فيجىء من أول وهلة مسبوكاً مفرغ المعانى بقوالب لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد، فسبحان من خلقه بهذه الأطوار، وجمله بهذه الآثار، إنه فعال لما يريد.

وقال فيه تلميذه أديب إسحاق :

ومن غرائب فضله أنه كان يتتبع حركات المعارف الأوربية، والمستكشفات العصرية، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوربة العالية.

وقال الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد[٢] :

« برع فى العلوم الغربية كما برع فى علوم الشريعة، وألم بكثير من دقائق

---

(١) فى كتابه سحر هاروت.

(٢) عن محاضرة للعقاد بجمعية الشبان المسيحيين يوم ٨ فبراير ١٩٣٤.

العلوم العقلية كما ألم بالعلوم الرياضية، وتعلم إلى جانب هذا كله الفنون القديمة، وأضاف إليها كل ما تسنى له الاطلاع عليه فى اللغات التى كان يعرفها وهى الفارسية والعربية والتركية والإنجليزية والفرنسية — فاجتمع له حظ من العلم الغزير يزداد غزارة وإثمارا فى لب خصيب مثل لبه، وبداهة مشرقة مثل بداهته.

## ٦ — خاتمة

هذا هو أمر السيد جمال الدين، وتلك هى حياته التى سقناها فى الفصلين السابقين على وجه الاختصار، والمنصف يرى فى هذا الوجه المختصر مبلغ عظمة السيد جمال الدين، وأنه كان فى حياته علماً فرداً لا يدانيه أحد فى علمه، ولا فى إصلاحه — إذ لم يكن مصلحاً لأمة بعينها، ولا إصلاحه فى ناحية واحدة صرف جهوده إليها، وإنما كان مصلحاً للشرق كله، وفى نواح من الإصلاح متعددة دينية وفكرية واجتماعية وسياسية وقد صدق هو فى قوله:

« الشرق! الشرق! لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه. وتحرى دوائه ».

ولكى لا نرمى بالمحاباة أو المبالغة فى وصف هذا العظيم — نأتى بصفحة كتبها مؤرخ العصر الحديث الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى، بين فيها فضل جمال الدين ومدى الرسالة التى أداها قال حفظه الله:

« إن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية، والفكرية إلى الزعيم الكبير، والفيلسوف الشهير، السيد جمال الدين الأفغانى.

ظل الشرق قرونا عديدة رازحاً تحت نير الجمود الفكرى، والتأخر العلمى، والاستعباد السياسى، وبقى فى سبات عميق، إلى أن قبض الله له الحكيم الأفغانى (جمال الدين) فنفخ فيه روح اليقظة والحياة، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك، وبالعقول أن تستيقظ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية، فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة.

وإذا أردنا أن نتبين فى « كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى الرسالة التى أداها ، فلنذكر أنه كان فى حياته ( مصلحا دينيًّا ) ، وفيلسوفاً حكيما ، وزعيماً سياسيًّا ، فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية واضطلع بها معاً.

فأدى من الناحية الدينية : مهمة الإصلاح والتجديد ، التى أدى مثلها مرتان لوثر للمسيحية ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته ، وترجع إلى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت إلى تأخر المسلمين .

ومن الناحية الفكرية : أدى المهمة التى قام بها فى أوربا فلاسفة الفكر أمثال : جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما ، فعمل على إنارة البصائر ، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد .

ومن الوجهة السياسية : استنهض الهمم ، واستثار فى النفوس روح العزة والكرامة والتطلع إلى الحرية ، وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية ، وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب كواشنطون وجار بيلدى ، ومازينى وكوشت وغيرهم .

فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ويضطلع بها معا فى عهد اشتد فيه ظلام الجهالة، وتفرقت الكلمة ، وعزّ النصير ، وتشعبت الأهواء، يجب أن يتسامى فى قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقرية ، ويقيناً أن الأمم الشرقية لم تقدر حتى الآن حكيم الشرق حق قدره ، ولا أدت له حقة من الوفاء والتكريم وسيظهر فضله على مر السنين[١] » .

---

(١) ص ١٤٨ و ١٤٩ ج ٢ عصر إسماعيل .